سينما

«قلوب كيميائية» لريتشارد تانّ

نشيدُ حبّ المراهَقة وميلانكوليّتها

عن الحب والمراهقة والشعر والعلم والكيمياء في المشاعر بين مراهقين اثنين، تروى في «قلوب كيميائية» حكايات ومغامرات وتفاصيل وعلاقات

محمد بنعزيز

هذه خلطة مشاعر مذهلة: مراهَقة وحبّ وشعر، في «قلوب كيميائية» (2020) لريتشارد تانّ. فيلمٌ عن مراهق يائس ومراهقة غامضة، يشتبكان في قصة حبّ تتغذّى من كيمياء القلوب. قصة تفتح أفق الشاب، وتضيء قلب الشابة، التي تطالع شعر بابلو نيرودا لتفهم نفسها. هذا يجعل تحليلاتها مُفرطة في التنظير. مراهقٌ، يهوى جبر الفخار المكسور، يقع في حبّ مراهقة مصدومة، تقرأ الشعر بكثافة. يحاول الفيلم تفسير الحبّ بالفن والعلم والشعر وعلم الأعصاب. بالنسبة إلى دارسي الأعصاب، الحبّ حدث كيميائي، يُحرّك المناطق المتوحشة في الدماغ، فتهيج القصائد مشتعلةً بالعواطف. تمّ ترحيل مفاهيم من حقل علمي إلى آخر أدبي لتفسير البشر.

في الفيلم والشعر استعارات، يمكن إرجاعها إلى أصلها، أي التشبيه. بذلك، يحمل المجهول المعلوم. استعارات حسية لا تجريدية، مولّدة للمعنى لا عاقر. بفضلها، يستطيع المتلقّي فهم الصورة المجهولة له بالصورة المعلومة لديه في واقعه. بفضل الشعر، يُدركُ أنّه يمكن إصلاح الفخار المكسور. أما القلوب، فلا تنجبر. ما جرى لا يُنسى. يجب تجاوزه. كيف يتصرّف المراهق حين يفقد حبّه الكبير فجأة؟ ينهار. يفكر في الانتحار. بعدها، تأتي الكتابة. المواضيع التي تستحق أنْ تُكتب أقرب مما يتصوّر. لدى بطل الفيلم قدرات تحرير كبيرة. يحلم أنْ يصير كاتباً. لديه منصّة للنشر. لكنْ، ليس لديه ما يقوله. الحبّ وقود الكتابة في سنّ المراهَقة. لكنْ، لن يشتعل هذا الوقود من دون مطالعة قصائد كتلك التي كتبها نيرودا، الذي أنشد: «يدك على صدري تصبح قطعة مني».

بعد التفكير في الانتحار، تأتي الكتابة. الكتابة علاج ميلانكوليا المراهَقة، التي تغذّي الخيال بالسوداوية والمشاعر الجامحة. يتزامن تحسّن العلاقة العاطفية مع صدور عدد جديد من مجلة الثانوية، فالكتابة علاج للحصول على التطهير (كاتارسيس).

كيف يبدو العالم لمُراهِق أميركي على أعتاب الشباب؟ يبدو له فرصة أحياناً، وكارثة مرات كثيرة.

مراهِقٌ يضغط عليه والداه ليتفوّق، وتضغط عليه مواقع التواصل الاجتماعي ليُلائم جسده مع معايير جمالية معينة. لهذا صدى في الأفلام. مثلاً: سبق للسينما الأميركية أنْ تناولت كيمياء قلب المُراهِق في «الجمال الأميركي» (1999) لسام مانديس. في هذا القبح الأميركي، يعيش المُراهِق والمُراهِقة جحيم كونهما نكرة. المُراهِقة جاين بورنهام (ثورا بيرتش) ساخطة على نفسها بسبب شكلها، الذي لا يناسب النموذج الرائج في مواقع التواصل الاجتماعي. تشعر بالعار، حين ترى جنون والدها لَسْتِر (كيفن سبايسي) بصديقتها ذات «الجسد المثالي». تعمّق جاين الجحيم حولها. هي ساخطة على والديها الفاشِلَين الفقيرين الأنانيين المضجرين. إنّهما لا يعرفان طعامها المفضّل. سواء كان والد المُراهِق ضابطاً شرساً، أو موظّفاً فاشلاً، المُراهِق غير راضٍ. ربما يستغرب المتفرّج غير الغربي هذا السخط، لأنّ المراهق يتحرّك في بيئة تعليمية متماسكة، تحتضن طلاباً بسحنات مختلفة، لعكس عيش أعراق مختلفة في المجتمع الأميركي. بينما تتطوّر المشاكل العاطفية للمُراهق الأميركي، تُظهر الخلفية صلابة البيئة التعليمية التي يتحرّك فيها، ويتكشّف مدى قدرتها على أنْ توفّر له فضاءً ثقافياً، يُشبع عطشه إلى فهم ذاته، ويستجيب لطموحه في مستقبل أفضل.

تُظهر لقطاتٍ من «قلوب كيميائية» ديكوراً كبيراً. تجري الأحداث في عالم أخضر كعمر أبطال الفيلم. ما يبدو فضاءً سلبياً في بداية اللقطة، يصير وظيفياً في نصفها الثاني، عندما تأتي المعلومة من عمق الكادر، أو حين يمشي المُراهق المشّاء إلى عمق الكادر، فيُسمع صوتٌ، أو تُرى سيارة فخمة أو منزلٌ كبير. هكذا يجد ما يجري في مقدمة الكادر تفسيره في عمقه، حيث الثروة والرفاهية.

يُقدّم الفيلم بورتريه مُراهِق أميركي يعيش غلياناً داخلياً. فيلمٌ يطلّ على روح حائرة مُندفعة، لكنّ المُراهق محظوظ، لا يعنيه ما يجري في باقي العالم. فيلمٌ عن طلاّب صفوف ثانوية، في سنّ الـ17، يُصنَّفون كمُراهقين، لأنّ طول مرحلة التعلّم تُمدّد طفولتهم ومُراهقتهم. في مجتمعاتٍ أخرى، أو خارج المدرسة، يُصنَّفون باكراً كراشدين. تختلف ألوان الطلاب وأعراقهم، لكنّهم يعيشون المشاعر نفسها. ينكشف، من تحليل أثر الحبّ في الدماغ، أنّ المُراهق العاشق المجروح يحتاج زمناً طويلاً ليُضمّد جراحه. يعيش تجربة لا تُمحى، لذا فالمصالحة الشاملة مع الواقع الجديد مستحيلة.

لمنح الحكاية جذوراً تاريخية، يُستَشهد بمؤلّفين قدماء، كتبوا عن حُبّ الشباب، أبرزهم ويليام شكسبير، في مسرحية «روميو وجولييت».

حين تشتبك السينما بالشعر لحَكي الحبّ الأول، يفهم المُحبّ ما عاشه، وينهض ليُكمل طريقه. يحصل المُراهِق الأميركي المحظوظ على تجارب عاطفية، في الواقع والسينما، تُحرّره باكراً من الكبت. هكذا ينطلق إلى آفاق جديدة، لأنّه صديق الحبّ والكتب، وهو يقرأ نيرودا: «يموت ببطء/ من لا يسافر/ من لا يقرأ/ من لا يسمع الموسيقى/ من لا يعرف كيف يجد شيئاً بفضل عينيه».

صدق نيرودا. سافِرْ طالِعْ شاهِدْ، كي لا تموت.

> مراهق يائس ومراهقة غامضة وحبّ يتغذّى من كيمياء القلوب

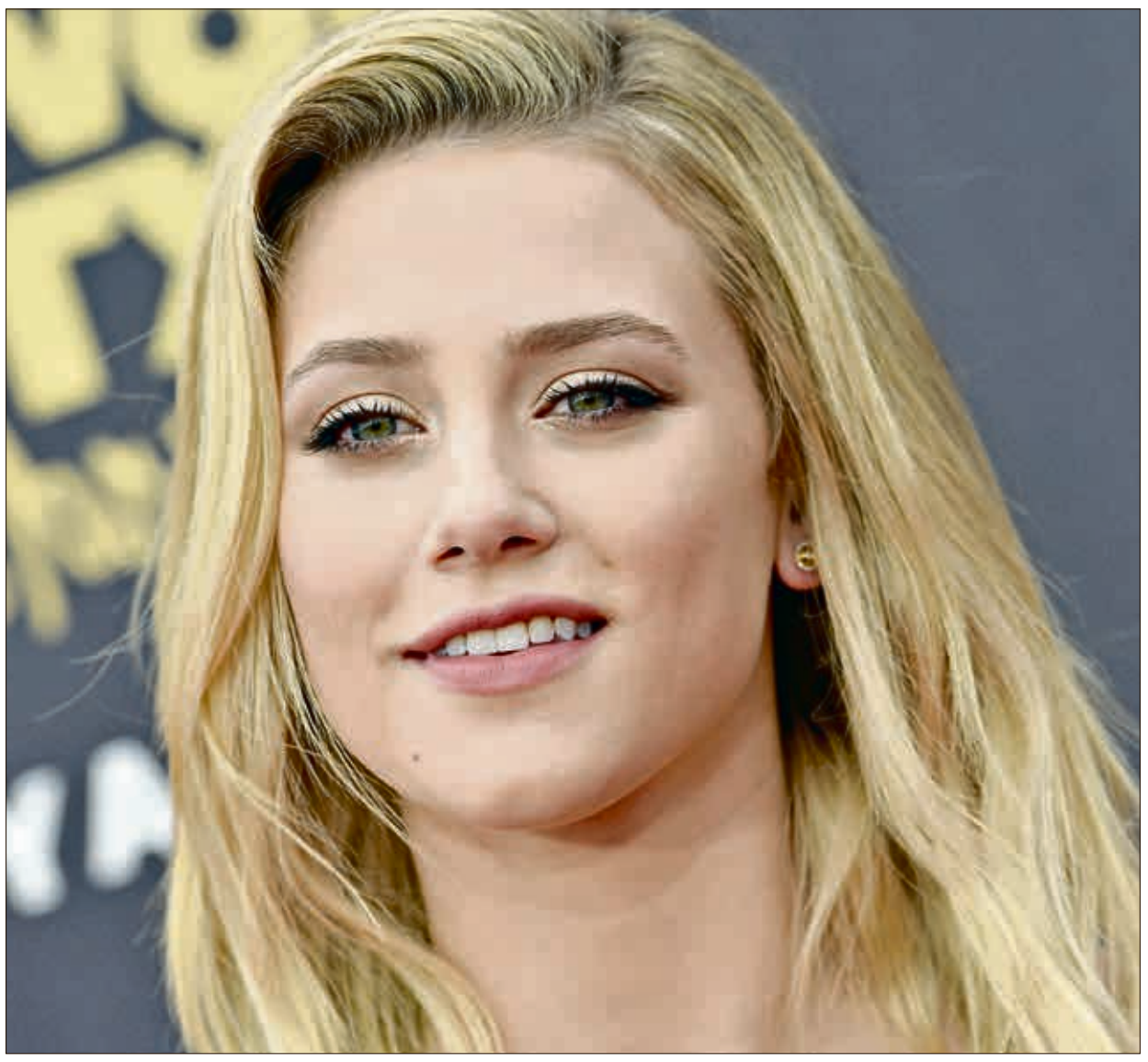

ليلي راينهارت: نيرودا درب إلى معرفة الذات (Getty)

جديد م. نايت شامالان

تشويقٌ وإيقاع متوتّر ومزيج أنواع

سعيد المزواري

في أحد أروع مشاهد «إنترستيلار» (2014) لكريستوفر نولان، وأكثرها ترسّخاً في ذاكرة الـ«سينفيليين»، يحلّ فريق المركبة الفضائية «إندورانس» على كوكب ميلر المائي، المتميّز بقربه الشديد من ثقب أسود، ما يؤدّي إلى مفعول شديد للجاذبيّة، يمطّ الزمن الذي يمرّ فوقه بشكل أبطأ من الأرض (كلّ ساعة تمرّ على سطحه توازي 7 أعوام من الزمن الأرضي). ينتج عن حادثة اصطدام أحد أمواج المحيط العملاقة بالمكوك تأخير في مهمّة أفراد الفريق، الذين يكتشفون عند عودتهم إلى المركبة الأم أنّهم أمضوا 23 عاماً أرضياً كاملاً فوق كوكب ميلر.

يبدو سيناريو «أولد» (2021)، للمخرج أم. نايت شامالان (العنوان بالإنكليزية Old يعني الطاعن في السنّ، بحسب الفيلم)، محاكاة أرضية لهذا المشهد، فوق شاطئ ذي رمال ذهبية، ومناظر إكزوتيكية جميلة، وتوابل تُمزج الخيال العلمي بغموض أفلام الرعب السيكولوجي. في عطلة صيفية يُمضونها في منتزه على الشاطئ، يتلقّى أفراد أسرة غاي (غايل غارسيا برنال) من مالك الفندق عرضاً مُغرياً: تمضية يوم في شاطئ مُنعزل وخلّاب، رفقة مصطافين قليلي العدد، تمّ انتقاؤهم بعناية: طبيب في عقده الخامس وزوجته الثلاثينية، ذات الاهتمام البالغ بمظهرها؛ مُمرّض آسيوي الأصل يلتحق بالمجموعة، رفقة زوجته المُصابة بداء الصّرع. ما إن يصل المصطافون إلى وجهتهم، حتى يرفض سائق الحافلة (يؤدّي دوره شامالان نفسه، في امتدادٍ للمسة ظهوره في أدوار ثانوية في جُلّ أفلامه) مرافقتهم إلى الشاطئ، مُكتفياً بإرشادهم إلى اجتياز ممرٍّ صخري ضيّق، يكتشفون لاحقاً أنّه المنفذ الوحيد إلى الشّاطئ، دخولاً وخروجاً، لكونه سفحاً صخرياً شاهقاً، صعب المراس، يحيط به من كلّ الجوانب، فيما يجعل تيار الأمواج العاتية من إمكانية الالتفاف على الشاطئ سباحةً مُهمّة شبه مستحيلة.

تتلاحق الأحداث سريعاً. يكتشف المصطافون جثّة فتاة طافية، يسعى الطبيب، ذو النزعة العنصرية والتصرّفات الغريبة (أدى الدّور ببراعة البريطاني روفوس سيويل)، إلى اتّهام شاب ذي أصل أفريقي، موجود على الشاطئ، بقتلها، من دون أيّ دليل، قبل أنْ تتمثّل المفاجأة الكبرى ببدء ظهور علامات التقدّم في السنّ على الأطفال بشكل مُحيّر. تبوء كلّ محاولات مغادرة المكان، رجوعاً من الممرّ الصخري، بالفشل (يُصاب كلّ من يحاول ذلك بألم رهيب في الرأس، قبل أنْ يلفي نفسه فاقداً للوعي، عند بداية الممرّ، من جهة الشاطئ). يبدأ الجميع في ترجيح فكرة قوة غامضة ترتبط بالمكان، بشكل أو بآخر، تؤدّي إلى تمطيط الزمن، ومروره بالتالي بشكل جدّ متسارع، من وجهة نظر المصطافين.

تُعدّ توطئة أفلام شامالان مهمّة شاقّة، كلّ مرّة، لأنه غالباً ما يشيّد أفلاماً . عوالم تقوم على تفاصيل كثيرة، وقواعد تحيل على جمالية ألعاب الفيديو، أو لوحات تمضية الوقت. كما يُشيّد نظاماً مرموزاً ومُعقّداً، يتجلّى فيه تقدّم الحبكة في منح مفاتيح قراءة، تتطوّر أهميتها بشكل تصاعدي مع انجلاء غموض الحكي، حتى بلوغ المفتاح الأخير، الذي يتيح قراءة الكلّ تحت ضوء جديد وغير متوقّع.

هكذا الأمر منذ البداية، مع رؤية العالم بعيون الطفل في «الحاسة السادسة» (1999)، ونظام عيش الشخصيات في مجموعة ذات قوانين معيّنة في «القرية» (2004): الفكرة نفسها عن قوّة خارقة، تُهدّد من يخرج عن حدود المجموعة. أو مخيال كيفن المركّب بعدد الشخصيات التي تكتنف وعيه، في «سبليت» (2017).

م. نايت شامالان: لمسة ظهور في أدوار ثانوية في أفلامه (ديا ديباسوبك/Getty)

> قوة غامضة ترتبط بشاطئ البحر تؤدّي إلى تمطيط الزمن

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أفلام جديدة

■ «العودة»، وثائقي طويل لسارة الشاذلي (الصورة): يبلغ والد سارة 80 عاماً. رجل حيوي للغاية. عندما تتغيّر خططها بسبب كورونا، تجد نفسها عالقة في المنزل الذي أمضت فيه أعوام طفولتها مع والديها، بعد العيش خارجه لـ10 أعوام. تمضي سارة الوقت معهما بسبب قرارات منع التجوّل والإغلاق، وتشعر بوجوب تسجيل لحظاتها الثمينة مع والدها في فيلم، للمرة الأولى. كما أنها تشعر لاحقاً بأنّ قرار عودتها إلى مصر كان صحيحاً.

■ Les Intranquilles لجواكيم لافوس، تمثيل ليلى بختي (الصورة) وداميان بونّار: يتابع الفيلم، بدقّة وبنَفَس عاطفي، حكاية الثنائي ليلى وداميان، الذي يُحبّ أحدهما الآخر بشغفٍ وعمق. ورغم أنّه مُصابٌ بـ«ثنائية القطب»، وإدراكه ما يُسبّبه هذا من تحدّيات ومطالب لمواجهته، يجهد داميان في التقدّم إلى الأمام، ويُصرّ على تحصين علاقته بليلى، مُدركاً في الوقت نفسه. أنّه ربما لن يتمكّن من منحها كلّ ما تريده.

■ «أميرة»، روائي طويل لمحمد دياب، تمثيل صبا مبارك (الصورة): أميرة، مُراهقة مفعمة بالحياة، كبرت وهي تعتقد أنّها جاءت إلى الدنيا بواسطة تهريب السائل المنوي لأبيها، المسجون منذ وقتٍ بتهم مختلفة. وعندما تُظهر التحاليل المخبرية عقم السائل المنوي هذا، يتزعزع إحساس أميرة بالهوية، ويحاول والدها تكرار تجربة الإنجاب مُجدّداً.

■ Sentinelle لجوليان لوكليرك، تمثيل أولغا كوريلانكو (الصورة) وماريلين ليما: تعمل كلارا (33 عاماً) مُترجمة في الجيش الفرنسي. بعد عيشها أهوال الحرب في سورية، تُنقل إلى نيس في إطار «عملية سونتينال»، فتحاول، برفقة والدتها وشقيقتها، إعادة ترميم نفسها وروحها، بهدوء. لكنّ اغتصاب شقيقتها يقلب الدنيا عليها، ويدفعها إلى مغامرة حادة للثأر.

■ «قمر 14»، روائي طويل لهادي الباجوري، تمثيل شيرين رضا (الصورة) وغادة عادل وأحمد الفيشاوي: 5 قصص تُروى سينمائياً، تتناول كلّ واحدة منها تجربة انفعالية لأفرادٍ يحاولون تحصين علاقاتهم العاطفية في مجتمع يحاربهم ويحول دون تحقيق رغباتهم الحسّية والرومانسية، بل يذهب بعيداً في تحطيم العشق الذي يشعرون به إزاء أفرادٍ آخرين، يرغبون في إقامة علاقت حبّ معهم. بين الحب والاجتماع والعيش، تُسرد تلك القصص.